مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 05 / العدد: 02 / (2021)، ص375–386

آلِيَاتُ التَّمَاسُك النَّصِيّ فِي قَصِيدَة الأَرْمَلَة المُرْضِعَة لِمَعْرُوف الرُّصَافِي

The mechanics of textual coherence in the baby widow's poem To Ma'ruf Al-Rasafi

إيمان جربوعة
imane.djerboua@umc.edu.dz
جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة 01
(الجزائر)

تاريخ الاستلام:2021/06/25 تاريخ القبول:2021/09/24 تاريخ النشر:2021/12/02

ملخص:

تهتم لسانيات النصّ بالولوج إلى عوالم الإنتاجات الأدبيّة وغيرها للعثور على ظاهرة ترابط هذه النصوص من الناحيتين الشّكليّة والدّلاليّة، والتّي تنبعث من نظرتها الكليّة للنصّ كنسيج واحد وبنية كليّة متلاحمة، ومن هذا المنطلق ينهض مشروع هذا البحث الذي يروم تقصّي أهمّ آليات التماسك النصيّ في قصيدة الأرملة المرضعة لمعروف الرصافي؛ بُغية الكشف عن وسائل اشتغالها في هذه المدوّنة الشعريّة من جانب، واستقراء دورها في بناء الدلالة الكليّة لهذا النّوع من النّصوص من جانب آخر.

كلمات مفتاحية: لسانيات النصّ، تماسك، شعر حديث، اتّساق، الرصافي.

Abstract:

The linguistics of the text is concerned with accessing the worlds of literary and other productions to find the phenomenon of interconnectedness of these texts in both formal and semantic terms, which emanates from their holistic view of the text as a single fabric and a coherent overall structure, and from this standpoint the project of this research which aims to investigate the mechanisms of textual cohesion in the poem of the nursing widow is well known. Rasafi; In order to reveal the means of its operation in this poetic code on the one hand, and to derive its role in building the overall significance of this type of texts on the other hand.

Keywords: linguistics of text, coherence, modern poetry, consistency, al-Rusafi.

المقدمة:

معلوم أن الربط أو الترابط بين الوحدات اللّغوية ضمن التركيب النحوي، وبين أجزاء النص الواحد، يعدّ من أهم أسس النظام التركيبي للجملة، بل قد ينعدم إدراك المتلقي للمعاني والدلالات الواردة في الكلام عند عدم وجود هذا الترابط بين أجزائه، سواء كان هذا الكلام جملة أم تركيبا نحويا واحدا، أم كان نصًا من النصوص شعرا أو نثرا، و قد أولت لسانيات النص (Linguistics of Text) اهتماما بالغا بهذا الجانب، واصطلحت عليه اسم "التماسك النصي"(Textual Coherence).

ولما كان النص الشعري من أهم النصوص التي يُضمِّن فيها الشاعر قصيدته وسائل ربط تربط بين أبياتها، لتكوِّن وحدة متماسكة تساهم في إيصال قصده للمتلقي، اندرجت أهمية بحثنا هذا الذي يروم معالجة نص شعري يعدّ من روائع ما قيل في العصر الحديث؛ وهو قصيدة "الأرملة المرضعة" للشاعر العراقي معروف الرصافي –والتي على حدّ علمنا لم ينظر إليها من زاوية لسانيات النص بعدُ–؛ بالرغم من كونها حقلا نصيا خصبا وظف فيه صاحبه جملة من أدوات التماسك النصي، والتي ساهمت في تلاحم النص ووحدته. وقد تأطّر هذا البحث وفق المنهج الوصفي الذي يصف أهم أدوات الاتساق الواردة في القصيدة مدونة البحث وتحليلها؛ فالمنهج الوصفي يسمح بتتبع ووصف العناصر المراد مناقشتها ووضعها قيد التحليل.

والبحث بذلك يتغيا الإجابة عن إشكالية مفادها:

– ما هي أهم آليات التماسك النصي التي تبلورت عبر خارطة النص الشعري"الأرملة المرضعة" لمعروف الرصافي؟ وإلى أي مدى ساهمت في تلاحم أجزاء هذا النص وترابطه؟

1–نظرة إلى مصطلح التماسك النصي:

يعدّ التماسك النصي من الكلمات المفاتيح التي ارتكزت عليها الدراسة اللسانية النصية؛ وذلك نظرا لعلاقتها المباشرة بالنص، فهو من أهم المقومات التي عدّها النصيون بمثابة العمود الفقري لنظريتهم، لدرجة اعتباره لدى بعض الباحثين أنه كل شيء في التحليل النصي، إذ بواسطته نميز بين النص واللانصّ.

فالتماسك النصي هو تعلّق وحدات النص بعضها ببعض،أي أنه جملة "العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية، التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى"[1] ؛ لتحقّق في النهاية خطابا يتلقاه متلق فيدركه ويتفاعل معه تفاعلا سلبيا أو إيجابيا. ومن هنا فالتماسك يراد به أن يكون النص أو الخطاب ملتحما بعضه ببعض، فلا ينفكّ منه جزء عن آخر، وكأن أجزاءَه يمسك بعضها بعضا، إذ تعمل جمله وتراكيبه في تكامل عضوي تضيءُ اللاحقة على السابقة، دون أن تستغني عنها.

2– أهم آليات التماسك النصيّ في قصيدة الأرملة المرضعة[2] لمعروف الرصافي:

تؤدي آليات التماسك النصيّ دوراً هاماً في تحقيق الوحدة الكلية للقصيدة، إذ تعدّ منبعاً رئيسا للنصيّة، ومن هذا المنطلق سنعالج أهم عناصر التماسك النصي في المدونة الشعرية "الأرملة المرضعة للرصافي"، ولكن قبل هذا بما أنّ السياق يعدّ من ركائز التحليل اللساني النصي لأي خطاب؛ فحَرِيٌّ بنا أن نقف قليلا عند سياق القصيدة مدونة التطبيق، حتى يسهل علينا فيما بعد تحليل شواهد التماسك النصي في الأبيات في سياقها المقامي الخاص:

- **سياق القصيدة (Context of the Poem):**

إنّ المدوّنة الشعرية التي بين أيدينا والموسومة بـ "الأرملة المرضعة" هي من أهم قصائد التي سجلت بصدقِ الشعور ورقة الإحساس وإنسانية الشاعر العراقي "معروف الرصافي"، وهي تندرج تحت الأدب الاجتماعي إذ احتوت على مبادئ اجتماعية هامة؛ تتمثل في الشعور بالفقراء ومشاركتهم معاناتهم، ومنهم امرأة بائسة التقاها الرصافي فتفطر لها قلبه حزنا وألما، فبينما كان يتجاذب أطراف الحديث مع صديقه "التتنجي"، وإذا بامرأة محجبة، يوحي منظرها العام بأنها فقيرة، وكانت تحمل صحنًا، وطلبتْ بالإشارة من صاحبه أن يعطيها بكم فلس كثمن لهذا الصحن، لكن صاحب الدكان خرج إليها وحدثها همسًا، فانصرفت المرأة الفقيرة. هذا الحدث جعل الرصافي يرسم علامات استفهام كبيرة، وقد حيّره تصرف السيدة الفقيرة، وتصرف صاحبه التتنجي معها همسًا، فاستفسر من صديقه عنها. فأخبره بأنها أرملة تعيل يتيمين، وهم الآن جياع، وتريد أن ترهن الصحن بأربعة فلوس كي تشتري لهما خبزًا، فما كان من الرصافي إلا أن يلحق بها ويعطيها اثني عشر قرشًا كان كل ما يملكه الرصافي في جيبه، فأخذت السيدة الأرملة القروش وهي في حالة تردد وحياء، وسلمت الصحن للرصافي وهي تقول: "الله يرضى عليك تفضل وخذ الصحن"، فرفض الرصافي وغادرها عائدًا إلى دكان صديقه، وقلبه يعتصر من الألم. ثم عاد إلى بيته، ولم يستطع النوم ليلتها، وراح يكتب هذه القصيدة والدموع تنهمر من عينيه، كما أوضح هو بقلمه، فصور فيها حال الأم بأعذب وأرق تصوير، ويتناقل الأجيال هذه القصيدة لحض الناس على مساعدة الفقراء[3].

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب النقاد؛ حتى عدّها أحدهم من النوادر فهي تُعد "من المعلقات في بابها، فقد أجاد فيها الشاعر تصوير البؤس والخصاصة في شخص أرملة ذات طفلة، وجاءت القصيدة على ضرب رائق من السلاسة وعلى ضربا رائع من الفخامة، وهي أعلى مستوى وابعد شأواً من كل ما نظمه الشاعر في هذا المدى من القصيدة."[4]

2-1 - الإحالة: (Référence)

تعد الإحالة من أهم وسائل التماسك النصي، وقبل إبرازنا لبعض المظاهر الإحالية المبثوثة في ثنايا المدونة الشعرية لمعروف الرصافي؛ سنحاول توضيح المفهوم النظري لهذه الظاهرة النصية، فهي تُعرّف بأنها "العلاقة بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات"[5] ، وهي علاقة نصية كثيرة التمظهر في ثنايا أي خطاب؛ فلا تكاد تخلو منها أي جملة أو نص، ومن هنا تكمن أهميتها في الربط بين أجزاء النص على المستويين النحوي والدلالي؛ لأنها تقوم على عنصرين لا يمكن الاستغناء عن أحدهما " المحال و المحال إليه" وتحديدهما موكل به إلى المتلقي شرط ربط ذلك بسياق الموقف. وهي تنقسم إلى قسمين:

2-1-1 الإحالة داخل النص (الإحالة النصية) (Endophora):

هي الإحالة على العناصر اللغوية الواردة في الملفوظ[6] أي أن المراد بها هو توظيف كلمة أو عبارة ،تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى، تستعمل لاحقا في النص الشعري.

وهي بدورها تنقسم لقسمين[7]:

إحالة قبلية (Anaphora): أو الإحالة على سابق؛ وفيها يشير العنصر المحيل إلى عنصر آخر متقدم عليه.

إحالة بعدية(Cataphora): أو الإحالة على اللاحق؛ وفيها يشير العنصر المحيل إلى عنصر آخر يلحقه.

ومن نماذجها ما جاء في مستهل القصيدة:

لَقِيتَ(ها) لَيْتَنِي مَا كُنْتُ أَلْقَا(هَا) ... تَمْشِي وَقَدْ أَثْقَلَ الإمْلاقُ مَمْشَا(هَا)
أَثْوَابُ(هَا) رَثَّةٌ والرِّجْلُ حَافِيَةٌ ... وَالدَّمْعُ تَذْرِفُهُ فِي الخَدِّ عَيْنَا(هَا)
بَكَ(تْ) مِنَ الفَقْرِ فَاحْمَرَّتْ مَدَامِعُ(هَا)... وَاصْفَرَّ كَالوَرْسِ مِنْ جُوعٍ مُحَيَّا(هَا)

بالنظر إلى هذا المقطع نجد توظيف الشاعر للضمير المتّصل؛ العائد على الغائب المؤنث المفرد "ها" في مثل: "أَلْقَا(هَا) ومَمْشَا(هَا) و أَثْوَابُ(هَا) وتاء التأنيث في بَكَ(تْ)، وهي ضمائر تعود في سياقها النصّي على الأرملة المرضعة التي صادفها الشاعر، كما نُلفي توظيف الشاعر للضمائر التي تحيل على المخاطِب نحو: ياء المتكلم في (لَيْتَنِي) وتاء المتكلم في (كُنْتُ) فالمتكلم يصف في بداية القصيدة لقاءه بالمرأة الفقيرة، هذا اللقاء غير المنتظر أو غير المرتقب، الذي أفضى إلى الحزن والألم، و من ثَمَّ تمنى شاعرنا ألا يحدث، وعبر عنه بـ"ليت" و"ما" النافية (ليتني ما كنت ألقاها)، لكن وقع اللقاء، وواصل الشاعر وصفه لها ورصده لخطواتها قائلاً : (تَمْشِي وَقَدْ أَثْقَلَ الإمْلاقُ مَمْشَاهَا) فالخطوب والمآسي أثقلت من مشيتها، بحالتها الفقيرة التي يرثى لها، ثم أردف ذلك بوصف هيأتها الخارجية فهي حافية القدمين وجهها شاحب مصفرّ والذي شبَّهَه بالورس وهو نبات أصفر اللون، باكية من شدة الفقر.

ولذلك فتكرّر الإحالة النصية إلى الأرملة قد يجذّر شعور الذات الناطقة بانسحاقها تحت وطأة الحزن والحسرة، الذي انتاب المتكلم (الشاعر) حين تأمل مظهر هذه المرأة المسكينة؛ وما تعانيه من فقر وجوع شديدين. كما أن توظيف هذا الضمير بكثرة يستفز ويثير ذهن القارئ فيتساءل من هي؟ وهذه التقنية "تسعى بدورها، إلى مساعدة القارئ- بنحو ما- إلى الولوج داخل النص، وربطه بالنص بعلاقة حميمية"[8] وتنوع التجليات البنوية لضمير المتكلم بحسب تمظهره السياقي يعد منتجا لدلالات النص وأحداثه، باعتبار تعبيره على الحالة النفسية الحزينة للشاعر أثناء ذلك المشهد المؤلم الذي صادفه فجأة.

وإذا تأمّلنا جميع الضمائر السابقة لاحظنا أنّها قد جسّدت إحالة قبلية، بينما نصادف الإحالة البعدية في البيت الثالث يقول فيه الشّاعر:

ثُمَّ اجْتَذَبْتُ لَهَا مِنْ جَيْبِ مِلْحَفَتِي === دَرَاهِمَاً كُنْتُ أَسْتَبْقِي بَقَايَاهَا.
وَقُلْتُ يَا أُخْتُ أَرْجُو مِنْكِ تَكْرِمَتِي === بِأَخْذِهَا دُونَ مَا مَنٍّ تَغَشَّاهَا.

فضمير المتكلم التاء في (اجْتَذَبْتُ) يحيل إحالة بعدية؛ تعود على الدراهم القليلة التي كانت في جيب الشاعر، والتي آثرها على نفسه ومنحها لهذه الأرملة؛ وهنا تبدو نفس الشاعر الكريمة الرقيقة،التي تؤْثِر غيرها على نفسها، فردّة فعله إزاء هذا المشهد المحزن كانت مباشرة فعلا بالمنح وليس قولا فقط .

ومن أمثلة الإحالة بالاسم الموصول في المدونة الشعرية قول الرصافي:

مَاتَ الذي كَانَ يَحْمِيهَا وَيُسْعِدُهَا === فَالدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ بِالفَقْرِ أَشْقَاهَا

المَوْتُ أَفْجَعَهَا وَالفَقْرُ أَوْجَعَهَا === وَالهَمُّ أَنْحَلَهَا وَالغَمُّ أَضْنَاهَا

إذ يحيل الاسم الموصول (الذي) في الشطر الأول على زوج الأرملة الذي توفي وتركها وحيدة يتيمة مع ولدين صغيرين، وتكون الإحالة باسم الموصول الذي يعين مدلوله تعيينا يحيل إليه،وهي تُشكّل وسيلة من وسائل اتساق النصوص، لا سيما إذا كانت تحيل إلى عناصر مهمة في سياق النص، ممّا يجعل الأجزاء متصلة بعضها ببعض، وهو ما حدث في هذه القصيدة؛ إذ وُظِّفت في سياق يتضمن مزيدا من الوصف لحالة المرضعة المزرية؛ فترملها وهي في هذا السن المبكر كان من الأسباب التي أردت حالتها إلى هذه الدرجة من البؤس والفقر، فقد كان وجود زوجها إلى جانبها يمدها بالأمان والبهجة ويعيلها وأولادها.

2-1-2 الإحالة المقامية (الإحالة خارج النص) (Exophora):

وهي الألفاظ التي بمقتضاها تحيل اللفظة المستعملة إلى الشيء الموجود في الخارج[9] ومنه فهي إحالة خارجية. كأن يشير الضمير المنفصل (أنا) أو الضمير المتصل (نا) إلى المتكلم أو الكاتب؛ ويقع هذا الأخير خارج النص، ومن الأمثلة المجسّدة لها في رائعة الرصافي الإحالة على الذّات الشّاعرة (معروف الرصافي) في مواضعها المختلفة في مثل قوله مثلا:

هَذَا الذي في طَرِيقِي كُنْتُ أَسْمَعُهُ === مِنْهَا فَأَثَّرَ في نَفْسِي وَأَشْجَاهَا.

حَتَّى دَنَوْتُ إِلَيْهَا وَهْيَ مَاشِيَةٌ === وَأَدْمُعِي أَوْسَعَتْ في الخَدِّ مَجْرَاهَا.

وَقُلْتُ : يَا أُخْتُ مَهْلاً إِنَّنِي رَجُلٌ === أُشَارِكُ النَّاسَ طُرًّا في بَلاَيَاهَا.

سَمِعْتُ يَا أُخْتُ شَكْوَى تَهْمِسِينَ بِهَا === فِي قَالَةٍ أَوْجَعَتْ قَلْبِي بِفَحْوَاهَا.

هَلْ تَسْمَحُ الأُخْتُ لِي أَنِّي أُشَاطِرُهَا === مَا في يَدِي الآنَ أَسْتَرْضِي بِهِ اللهَ.

ثُمَّ اجْتَذَبْتُ لَهَا مِنْ جَيْبِ مِلْحَفَتِي === دَرَاهِمَاً كُنْتُ أَسْتَبْقِي بَقَّايَاهَا.

وَقُلْتُ يَا أُخْتُ أَرْجُو مِنْكِ تَكْرِمَتِي === بِأَخْذِهَا دُونَ مَا مَنٍّ تَغَشَّاهَا.

فهي الشخصية التي تتكلّم وتسرد وتروي وقائع عاشتها شخصيا؛ حين حدث اللقاء بينها وبين الأرملة المسكينة، وهي التي تطرح الأسئلة وتجيب عنها. وقد أشير إليها بتاء المتكلم الملحقة بالفعل(دَنَوْتُ، قُلْتُ، سَمِعْتُ، اجْتَذَبْتُ...)، أو يائه الموصولة بالاسم (في طَرِيقِي، قَلْبِي، مِلْحَفَتِي،..) أو ألف المتكلم في الفعل المضارع (أُشَارِكُ النَّاسَ،أُشَاطِرُهَا، أَسْتَرْضِي...)، فالشاعر في هذا النص هو الراوي، يحكي ألمه وحزنه بناء على ما رآه وراقبه بعينه، فقَصَّه مباشرة على المتلقي من خلال توظيف ضمير المتكلّم المفرد (أنا).

3-التكرار :(Recurrence)

خصص النصيون للتكرار مساحة كبيرة في بحوثهم، بينوا فيها سبل إفادة التكرار في تماسك النص واتساقه، وقد جعلوا هذا التكرار – تبعا لهاليداي ورقية حسن – في درجات هي:[10]

3-1-إعادة العنصر المعجمي : ويراد به تكرار اللفظ مع الحفاظ على المعنى نحو : شرعت في الصعود إلى القمة، الصعود سهل للغاية .و ينقسم إلى :

3-1-1 التكرار التام: :(Full Recurrence)وهو تكرار مباشر للكلمات والجمل والعناصر و الأنماط؛ نحو: شرَعْتُ في النّزول من الطائرة، النّزولُ سهل للغاية.

ومن أمثلته في المدونة الشعرية للرصافي قوله:

بَكَتْ مِنَ الفَقْرِ فَاحْمَرَّتْ مَدَامِعُهَا === وَاصْفَرَّ كَالوَرْسِ مِنْ جُوعٍ مُحَيَّاهَا.

مَاتَ الذي كَانَ يَحْمِيهَا وَيُسْعِدُهَا === فَالدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ بِالفَقْرِ أَشْقَاهَا.

المَوْتُ أَفْجَعَهَا وَالفَقْرُ أَوْجَعَهَا === وَالهَمُّ أَنْحَلَهَا وَالغَمُّ أَضْنَاهَا.

تشكل الوحدة المعجمية " فقر" التي واتر ظهورها أكثر من ست (06)مرات في القصيدة؛ بؤرة دلالية ظاهرة للقارئ في المدونة الشعرية، فلم يكتف الشاعر بدلالة "الفقر" في حد ذاتها على الذل والحرمان بل جسّد دلالتها بعدد تكرارها، و تتمثّل قيمة التكرار في تكثيف الشعور بأهمية المعنى الذي تؤديه الوحدة المكررة، فالفقر هو سبب الرئيس في الحالة المزرية التي تكابدها هذه المرضعة اليتيمة؛ وقد صوّر المخاطِب الفقر في أجسم مظاهره، عندما يداهم الإنسان بالجوع والمرض والعوز والهم،من خلال تكرار القالب اللغوي، وقد ساهم هذا التكرار في تحقيق تماسك وتآلف وحدات هذه الأبيات، وتشكيل نغمة صوتية داخلية متميزة؛ تضفي على القصيدة دفقات موسيقية عذبة.

و يمكن توضيح هذا بالمخطط الآتي :

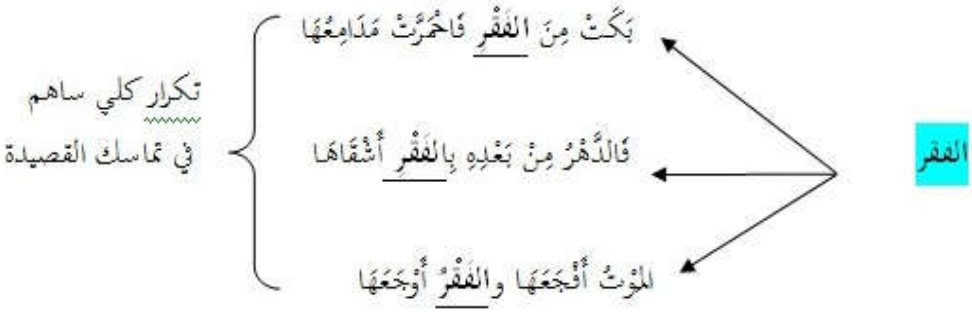

ويبدو أن ظاهرة التكرار كان لها حضور مكثّف في هذا النص الشعري، إذ لجأ صاحب النص إلى تكرار بعض الكلمات؛ ولعلّ ذلك يؤُول لكونه يرغب بإبرازها لارتباطها بالغرض العام للنص ، نحو تكراره لكلمة "البرد" في قوله:

تَمْشِي بِأَطْمَارِهَا وَالبَرْدُ يَلْسَعُهَا === كَأَنَّهُ عَقْرَبٌ شَالَتْ زُبَانَاهَا.

حَتَّى غَدَا جِسْمُهَا بِالبَرْدِ مُرْتَجِفَاً === كَالغُصْنِ في الرِّيحِ وَاصْطَكَّتْ ثَنَايَاهَا.

تظهر بنية التكرار في هذين البيتين من خلال تواتر كلمة "البرْد" في ثنايا الشطر الأول من كل بيت بشكل رأسي، حيث عمد الرصافي إلى التكرار الكلي لهذا العنصر المعجمي، في إطار وصفه لحالة

المرضعة التي كانت ترتجف من البرد الذي يجسد في بنيته العميقة أشد درجات الفقر، إذ أن هذه المسكينة ليس لها حق لباس تدفي به جسدها وجسد وليدتها، إضافة إلى أن هذا التكرار يبرز " قصدية الشاعر في تطريز تراكيبه بمثل هذا النمط من الوحدات الصوتية المكررة بجلاء لتقوم بما يشبه بالتدفق الإيقاعي"[11] والشعوري الذي يسهم في تحقيق الاستمرارية في هذا النص، ومن ثَمَّ الوحدة والتماسك والتلاحم بين فقراته.

3-1-2 التكرار الجزئي (Partial Recurrence):

وهو أن يتكرر العنصر المعجمي مع شيء من التغيير في الصيغة، أي أن اللفظة تتلاقى مع اللفظة الأولى في أصل الاشتقاق (المصدر) أو المادة المعجمية، مثال ذلك :شَرَعْتُ فِي النُّزُولِ مِنَ الطّائِرَة، النَازِلُونَ كَثِيرُونَ جِدًا. فما يميز هذا النوع هو احتمالية تعدد أطرافه، إذ يمكن أن يشتق من المادة اللغوية الواحدة أكثر من مشتق.

ومنه قول الشاعر:

مَا بَالُهَا وَهْيَ طُولَ اللَّيْلِ بَاكِيَةٌ === وَالأُمُّ سَاهِرَةٌ تَبْكِي لِمَبْكَاهَا.
يَكَادُ يَنْقَدُّ قَلْبِي حِينَ أَنْظُرُهَا === تَبْكِي وَتَفْتَحُ لِي مِنْ جُوعِهَا فَاهَا.
وَيُلْمِّهَا طِفْلَةً بَاتَتْ مُرَوَّعَةً === وَبِتُّ مِنْ حَوْلِهَا فِي اللَّيْلِ أَرْعَاهَا.
تَبْكِي لِتَشْكُوَ مِنْ دَاءٍ أَلَمَّ بِهَا === وَلَسْتُ أَفْهَمُ مِنْهَا كُنْهَ شَكْوَاهَا.

إن المتأمل في هذا المقطع الشعري يلحظ أن المنتج في نصه؛ اتّكأ على أسلوب تكرار المعنى مع تغيير الشكل اللفظي، بتوظيف مشتقات الجذر (ب، ك، ى)، بدلا من إعادة اللفظ أو العنصر المعجمي نفسه، حيث استعمل معروف في هذا المقطع الدوال (بَاكِيَةٌ، تَبْكِي، لِمَبْكَاهَا)وهي على التوالي تحمل البنيات الصرفية الآتية:(اسم فاعل – فعل مضارع – اسم مفعول)، ومشتقات الجذر (ب، ا،ت) "بَاتَتْ، بِتُّ" وهي على التوالي تحمل البنيات الصرفية الآتية (فعل ماض بصيغة الغائب المؤنث – فعل ماض بصيغة ضمير المتكلم)،ومشتقات الجذر (ش، ك، ى) "تشكو، شكواها" وهي(فعل مضارع بصيغة الغائب المؤنث– مصدر)، وهي تنسجم مع المحور العام والجو المحيط بالقصيدة جو (الحزن والألم) الذي بطلته الأرملة المرضع ، فهو يصوّر بكاءها لرؤية رضيعتها تبكي من الجوع، التي لا تملك سوى هذه اللغة العجمية لغة البكاء، والتي انتقلت بدورها للأم ثم له، فهو منظر حزين ومشهد كئيب يستذرف الدموع لدى كل من رآه. ولكن بالرغم من اختلاف البنية الشكلية وما تحمله من اختلافات دلالية؛ إلا أن ذلك ساهم في تحقيق التماسك والانسجام، بين الوحدات اللغوية المشكلة لهذه الأبيات الشعرية، أما اشتراك هذه الدوال المكررة في الجذر اللغوي، فأكسب النص هندسة إيقاعية مميزة، وأسهم في تجانسه وتلاحم أجزائه.

وقد ورد هذا النمط من التكرار على امتداد النص، كما جاء في قوله:

تَمْشِي وَتَحْمِلُ بِاليُسْرَى وَلِيدَتَهَا === حَمْلاً عَلَى الصَّدْرِ مَدْعُومَاً بِيُمْنَاهَا.

يتمثل التكرار الجزئي في تواتر الفعل المضارع (تَحمِلُ) والمصدر: (حَمْلا)،فالفعل (تَحمِلُ) فاعله مضمر في البنية السطحية، تحيلنا عليه البنية العميقة بأنّه ضمير المؤنث الغائب "هي" والعائد على الأرملة، يليه جار ومجرور "باليُسرى" حدّد به اليد التي تحملها بها، ثَّم يليه مفعول به مركب إضافي "وليدتها"، ويليه

مفعول مطلق "حملا" مؤكد للفعل "تَحْمِلُ"، كما حدّد الشاعر موضع الحمل بالجار والمجرور "على الصدر"، يليه صفة للحملً وجار ومجرور "مدعوما بيمناها"، حيث قدم الشاعر توصيفا دقيقا بكافة تفاصيل وجزئيات الصورة؛ لتقريبها إلى ذهن القارئ والتأثير في نفسيته، ناقلا مشقتها و تعبها بقيامها بفعلين في الوقت نفسه، وأكد ذلك بالمفعول المطلق (حملا)،مبينا أن الحمل كان بكلتا يديها، لتحميها من البرد مستسلمة لشدائد الحياة، فكل من الفعل المضارع (تُحمِلُ) والمصدر: (حَمْلا) مشتق من الجذر اللغوي نفسه (ح، م، ل).

وقد وظّف الشاعر هذا التكرار بشكل لافت للانتباه في القصيدة؛ لأن التكرار يقرر الأسماع بالكلمة المثيرة ويؤدي الغرض المنشود، كما أنه يتصلّ بخلجات النفس والحواس، فيكون له أثر فعّال في شدّ انتباه القارئ وزيادة اهتمامه بهذه الكلمات.

3-2 – التكرار بالترادف و شبهه :

ويعني تكرار المعنى دون اللفظ، وقد يتكرر أكثر من مرة في النص، ولأكثر من كلمة، ومن ثم تتسّع المساحة التي يُحدِث فيها السبك .ومن أمثلة ذلك في مدونتنا الشعرية قول الرصافي:

المَوْتُ أَفْجَعَهَا وَالفَقْرُ أَوْجَعَهَا === وَالهَمُّ أَنْحَلَهَا وَالغَمُّ أَضْنَاهَا

كَرُّ الجَدِيدَيْنِ قَدْ أَبْلَى عَبَاءَتَهَا === فَانْشَقَّ أَسْفَلُهَا وَانْشَقَّ أَعْلاَهَا

وَمَزَّقَ الدَّهْرُ ، وَيْلَ الدَّهْرِ، مِئْزَرَهَا === حَتَّى بَدَا مِنْ شُقُوقِ الثَّوْبِ جَنْبَاهَا

في هذه الأسطر يصف منتج النص حالة الأرملة ومظاهر قسوة الدهر عليها،فأثوابها بليت على بدنها، ونلاحظ أن الشاعر وظف في البيت الأول لفظة (عَبَاءَتَهَا)وفي شطر الأول من البيت الثاني لفظة (مِئْزَرَهَا)، أما في الشطر الثاني من هذا البيت فاستعمل لفظة(الثَّوْبِ) وهي كلها دوال تشير إلى معنى واحد؛ وهو اللباس الذي كانت ترتديه الأرملة، وهو ما يسمى بالتكرار بالترادف وشبهه، وقد وظفه الرصافي أيضا بشكل لافت في مختلف أسطر القصيدة من بدايتها إلى نهايتها،مما حقّق ما يسمى بالاستمرارية؛ أي استمرارية المعنى لدى المتلقي وعدم انقطاعه، وهو يسهم في ترابط النص، فالوحدة المعجمية "عباءتها" وُظِّفت في مواضع و"مئزرها" في مواضع و "ثوبها" في مواضع أخرى، الأمر الذي ساهم في عدم شعور المتلقي بالملل والضجر، الناجم عن كثرة تكرار وحدة معجمية بذاتها دون غيرها، وبهذا يكون التكرار بالترادف قد تجاوز حدود السطر الشعري إلى النص بأكمله، فأصبح مدى الربط بعيدا مما أدى إلى التماسك بين الأبيات، وقد ارتبط هذا الترادف ببناء الفكرة الأساسية للقصيدة؛ والتي تدور حول إلقاء الضوء على حياة هذه المرأة الفقيرة وما تعانيه من شدائد الحياة وصعابها.

3-3– التكرار بالاسم الجامع أو الشامل:

هو الاسم الذي يحمل أساسا مشتركا بين مجموعة من الأسماء الأخرى، ويعد وروده في النص من عناصر اتساقه. وفي هذا السياق تشير "عزة شبل" إلى أنه يمكن اعتبار الكلمات الشاملة من قبيل الترادف أحادي الجانب؛ أو التضمين أحادي الجانب بمعنى أنه ترادف غير قابل للعكس،[12]ومن أمثلته في مدونة التطبيق قول الرصافي:

لَقِيتُها لَيْتَنِي مَا كُنْتُ أَلْقَاهَا === تَمْشِي وَقَدْ أَثْقَلَ الإمْلاقُ مَمْشَاهَا

أَثْوَابُهَا رَثَّةٌ والرِّجْلُ حَافِيَةٌ === وَالدَّمْعُ تَذْرِفُهُ فِي الخَدِّ عَيْنَاهَا
بَكَتْ مِنَ الفَقْرِ فَاحْمَرَّتْ مَدَامِعُهَا === وَاصْفَرَّ كَالوَرْسِ مِنْ جُوعٍ مُحَيَّاهَا

بعد تمعننا في هذه الأبيات نلحظ استخدام صاحب النص لألفاظ: (الإمْلاقُ، رَثَّةٌ، حَافِيَةٌ، الدَّمْعُ، جوع) وهي مفردات يجمعها أساس ومعنى شامل هو كلمة "الفقر"، فهذه العناصر المعجمية كلها تدور في فلك (الفقر) وما يجاوره من حزن وشدة وهمّ، وهو بهذا في حكم التكرار حيث تكون الإحالة للكلمة الجامعة نفسها، وتؤُول كل هذه الوحدات إليها، وفي القصيدة وجهت القارئ إلى الوحدة المعجمية الرئيسة التي يركز عليها الرصافي وهي توصيف الحالة المزرية والدرجة العالية من الفقر والحرمان التي تعانيها هذه الأم اليتيمة، وهو ما أسهم من جهة أخرى في ترابطها وتماسكها، وقد منح الاسم الجامع النص استمرارا واطّرادا واضحا في المعنى.

4-الوصل: (Conjunction):

يعدُّ الوصل من وسائل التماسك النصي، بحيث إنه يحدد" الطريقة التي يترتبط بها اللاحق مع السابق بشكل منتظم[13]، وهو يعمل على انتظام الخطاب من البداية إلى النهاية، ويسهم في بنائه وذلك حسب الوقائع الكلامية.

فإذ كانت "إعادة اللفظ والإحالة المشتركة والحذف يحافظ على بقاء مساحات المعلومات، فإن الربط يشير إلى العلاقات بين المساحات وبين الأشياء التي في هذه المساحات"[14] ،فالنّص عبارة عن جمل وعبارات، ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى روابط متنوعة تصل بين فقرات النص وأجزائه بشكل منظم.

والوصل من منظور لسانيات النص هو علاقة توسيع في الفقرة، وهو في الوقت ذاته وسيلة من وسائل الاقتصاد، فهو من جهة وظيفته في الفقرة يسمح لها بالاتساع، أما من جهة شكله وبنائه، فما هو إلا حرف يرمز بالاتفاق إلى أن الناص أراد العطف، أي أنه أن يلفت المتلقي إلى اشتراك التركيب الحالي مع سابقه في الحكم، فهو من هذه الجهة فقط داخل في الاقتصاد اللغوي[15] ويُعرَف أيضا بالربط.

وله أنواع لعلّ من أبرزها:

4-1 -الربط الإضافي: (Additive):

يعرف بـ"الربط الإضافي" حيث يعمل هذا النوع من الربط على تقديم إضافات للمحتوى النصي عن طريق ترابط الأفكار وتكثيف الدلالة، وغالبا ما يشار إليه بأدوات مثل: أدوات العطف (الواو، أو) حيث يتم الربط بين الجمل عبر إضافة معنى جديد، وقد تكون وسيلة بناء لتفسير ما سيُقَدَّم علاقته بما سبقه"[16]

في قصيدة الأرملة المرضع" وظّف الشاعر الكثير من أدوات الوصل وخاصة حرف الواو لما له من أهمية في التسلسل النصي للجمل، نذكر منها قوله:

مَاتَ الذي كَانَ يَحْمِيهَا وَيُسْعِدُهَا === فَالدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ بِالفَقْرِ أَشْقَاهَا
المَوْتُ أَفْجَعَهَا وَالفَقْرُ أَوْجَعَهَا === وَالهَمُّ أَنْحَلَهَا وَالغَمُّ أَضْنَاهَا
فَمَنْظَرُ الحُزْنِ مَشْهُودٌ بِمَنْظَرِهَا === وَالبُؤْسُ مَرْآهُ مَقْرُونٌ بِمَرْآهَا

فإذا أمعنا النظر في أسلوب بناء هذه الأبيات سنتفطن إلى أن صاحب النص ذكر بعض المعلومات بشكل قائم على مقدار من التشابه بينها؛ لأنه يصف حال المرضع مسكينة تفطر لها قلبه ألما وحزنا، لذلك حاول ذكر أكثر من وصف عن طريق توظيف أداة الربط "الواو"، وكلها أوصاف تؤول إلى نتيجة واحدة، هي شدة فقر الأرملة وعيشتها البائسة، لذلك جاءت جمل هذا النص متماسكة الأجزاء باعتبار وحدة الفكرة والموضوع المعبَّر عنه.

4-2 -الربط السببي أو التعليلي:(Causal)

يعرفه مُحَمَّد خطابي بقوله: " أما الوصل السببي فيمكننا من إدراك العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر، ويعبر عنه بعناصر مثل: (Therefore, hence, thus, so)...، وتندرج ضمنه علاقات خاصة كالنتيجة والسبب والشرط ..، وهي كما نرى علاقات منطقية ذات علاقة وثيقة بعلاقة عامة هي السبب والنتيجة"[17]

فالربط السببي يوضح العلاقة المنطقية بين الجمل مثل علاقة السبب والنتيجة والشرط، ويسمى الوصل المنطقي.

وفي مدونة التطبيق تحقّق الوصل السببي عن طريق أداة الربط "الفاء" في قول الشاعر:

بَكَتْ مِنَ الفَقْرِ فَاحْمَرَّتْ مَدَامِعُهَا === وَاصْفَرَّ كَالوَرْسِ مِنْ جُوعٍ مُحَيَّاهَا
مَاتَ الذي كَانَ يَحْمِيهَا وَيُسْعِدُهَا === فَالدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ بِالفَقْرِ أَشْقَاهَا

يكمل الشاعر في هذين البيتين توصيف حالة الأرملة والوضعية التي آلت إليها، مما دفعه هذه المرة إلى توظيف الربط السببي عن طريق الفاء، بواسطة الربط بين السبب والنتيجة. من خلال علاقة السبب بالنتيجة، فيكون خبر الجملة الثانية سببا في خبر الأولى، وقد تكون الأولى نتيجة عن الثانية، فأشار إلى أن المرأة تساقطت دموعها على خديها من شدة الفقر، ونتيجة لهذا البكاء الشديد احمرت مدامعها. وكذا في البيت الثاني فبعد أن مات زوج الأرملة الذي كان سندها ومصدر قوتها وأمانها، وقد تسبب ذلك في شقاءها وتعبها، وقد ساهم هذا الربط في تماسك أجزاء البيتين وتلاحمهما .

4-3-الربط الزمني: (Temperal)

وهو علاقة بين أطروحتي جملتين متابعتين زمنيا[18] ويتحقق ذلك بفضل عناصر مثل: " ثُمّ"، بعد ذلك، أخيرا.

ومن نماذجه في مدونة التطبيق قول الرصافي:

هَلْ تَسْمَحُ الأُخْتُ لِي أَنِّي أُشَاطِرُهَا === مَا فِي يَدِي الآنَ أَسْتَرْضِي بِهِ اللهَ
ثُمَّ اجْتَذَبْتُ لَهَا مِنْ جَيْبِ مِلْحَفَتِي === دَرَاهِماً كُنْتُ أَسْتَبْقِي بَقَايَاهَا
وَقُلْتُ يَا أُخْتُ أَرْجُو مِنْكِ تَكْرِمَتِي === بِأَخْذِهَا دُونَ مَا مَنٍّ تَغَشَّاهَا

هذا المقطع الذى بين أيدينا يصوّر ردة فعل الشاعر اتجاه هذا الموقف المحزن الذى صادفه، فصوّر فيه الأفعال التي قام بها ليساعد المرضعة و يتيمتها : { سمعتُ، ثم إجتذبتُ،.. وقلتُ }، وكلّها أفعال جاءت بناء على ما رآه الشاعر و راقبه بعينه، من بؤس و مرض أحاط بهذه الأرملة المرضعة ، فبعد أن أدركهما على تلك الحال البائسة، وبعد الوصف الدقيق لتفاصيلهما المحزنة، تقدّم نحوهما واجتذب بعض الدراهم القليلة التي كانت في جيبه ومنحها للأرملة، وهو ما يبين النفس الشاعر التي تؤثر غيرها على

نفسها وقلبه الرحيم، وفي هذا السياق يشير بدوي طبانه "كان من حق الرصافي أن يوصف بالكرم بل بالإيثار، بسبب هذا البذل، لا بكثرة المبذول، بل بقيمته، لأنه صدر عمّن هو في أمس الحاجة إليه" [19]، ووظّف منتج النص الرابط الزمني "ثم" الذي يحيل على العلاقة الزمنية بين الجمل ومعانيها، فالمتكلم استغرق فترة من الزمن ليقوم بالفعل، وهو ما أدى إلى تماسك النص عن طريق الربط الزمني بين الأحداث السابقة واللاحقة.

5- خاتمة:

خلصنا في نهاية هذا البحث إلى جملة من النتائج تتمثل في:

- جاءت الإحالة في قصيدة الأرملة المرضع بصيغ متعدّدة، إذ تبيّنا خلالها ضروبا من الإحالة الضميرية، والإحالة بالأسماء الموصولة، والإحالة المقامية...بضمير المتكلم "أنا" وكلّها ساهمت بشكل بارز في اتساق القصيدة شكلا، كما أدّت دورا في تماسك دلالاتها.

- استوعبت قصيدة الأرملة المرضع أشكالا متنوعة من التكرار، والملاحظ على أغلب هذه الأشكال أنها لم ترد صدفة في ثنايا المدونة الشعرية؛ بل جاءت ضمن قصدية محددة عمد الشاعر من خلالها إلى توظيفها داخل بنية النص مما أدى إلى اتساق المدونة الشعرية، ومنعها من التفكك، وقد كان حضوره قويا مما أسهم في أجزاء القصيدة فيما بينها، سواء أكانت متجاورة أو متباعدة.

- أدوات الربط في القصيدة سواء الربط الإضافي أو السببي أو الزمني ساعدت أيضا على شدّ أواصر النصّ والربط بين أجزائه وتلاحم وحداته، وأعطت قوة للمعاني سواء داخل البيت الواحد أو القصيدة ككل.

6- قائمة الإحالات:

1- صبحي الفقي : علم اللغة النصي، ج1 بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، ط 1 ، 2000 ص96.

2- اعتمدت في هذه الدراسة على قصيدة الأرملة المرضعة الموجودة في ديوان معروف الرصافي :ديوان معروف الرصافي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014 ص 303-305.

3 - ينظر: نعيم الهاشمي الخفاجي: قصة للشاعر الرصافي حول أسباب تأليفه قصيدة الأرملة المرضعة، تاريخ النشر:27-02-2020 ، تاريخ الاطلاع: 19-12-2020، رابط المقال: https://www.sotaliraq.com/2020/02/27 .

4- عبدالرحمن مرضي علاوي : نقد النص الشعري في ضوء المنهج الاجتماعي الرصافي مثالا، مجلة مدد الآداب، العراق، ع15، 2018 ص 24.

5 - روبيرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ص 172.

6 - الأزهر الزناد: نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، (بيروت) ، ط1، 1993 ص 118.

7- ينظر: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص 40

8- محمود علي عبد المعطي: بنية السرد في شعر معروف الرصافي قصيدة " الأرملة المرضعة" أنموذجا، مجلة حقول،ع12، 2015 ص 121

9- محمّد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2001 ، ج 1، ص 125

10- ينظر: محمّد العبد: النص والخطاب والاتصال،الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة ،ط2، 2014 ص230-254 وينظر: جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998 ص 79 – 83.

11- محمود علي عبد المعطي: بنية السرد في شعر معروف الرصافي قصيدة "الأرملة المرضعة" أنموذجا ص 135.

12- عزة شبل: علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 2، 2009 ، ص 108.

13- أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، مصر ،ط1 ، 2001، ص.23

14- روبرت ديبوجراند: النص والخطاب والإجراء ، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة. ص 346
15- عمر أبوخرمة: نحو النص نقد نظرية وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث للنشر، الأردن، ط1، 2004 ص 184
16- ينظر: عزة شبل: المقامات اللزومية للسرقطي دراسة في علم لغة النص، رسالة دكتوراه، كلية الآداب،جامعة القاهرة، 2006 ص 110
17- مُحَمَّد خطابي: لسانيات النص ص23
18- المرجع نفسه ص 24
19- بدوي طبانه: معروف الرصافي دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية الاجتماعية، مطبعة السعادة، مصر ، ط1، د.ت، ص 142

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

- معروف الرصافي :ديوان معروف الرصافي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2014.

ب- المراجع:

ب-1 الكتب العربية:

- أحمد عفيفي: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ط1، 2001.
- الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، (بيروت) ، ط1، 1993.
- بدوي طبانه: معروف الرصافي دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية الاجتماعية، مطبعة السعادة، مصر، ط1، د.ت.
- جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998.
- صبحي الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، ط1، 2000.
- عزة شبل: المقامات اللزومية للسرقطي، دراسة في علم لغة النص، رسالة دكتوراه، كلية الآداب،جامعة القاهرة، 2006.
- عمر أبوخرمة: نحو النص نقد نظرية وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث للنشر، الأردن، ط1، 2004.
- مُحَمَّد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي،بيروت / الدار البيضاء ، ط1 ،1991.
- مُحَمَّد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ج1، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2001.
- مُحَمَّد العبد: النص والخطاب والاتصال،الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي،القاهرة ، ط2، 2014.

ب-2 الكتب المترجمة:

- روبرت ديبوجراند: النص والخطاب والإجراء ، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة.د.ت.

ب-3 المجلات والدوريات:

- عبدالرحمن مرضي علاوي: نقد النص الشعري في ضوء المنهج الاجتماعي الرصافي مثالا، مجلة مدد الآداب،ع15 ، العراق، 2018.
- محمود علي عبد المعطي: بنية السرد في شعر معروف الرصافي قصيدة " الأرملة المرضعة" أنموذجا،مجلة حقول،ع12، 2015.

ب-4 المواقع الالكترونية:

- نعيم الهاشمي الخفاجي: قصة للشاعر الرصافي حول أسباب تأليفه قصيدة الأرملة المرضعة، تاريخ النشر:27-02-2020 ، تاريخ الاطلاع: 19-12-2020 ، رابط المقال: https://www.sotaliraq.com/2020/02/27 .